

عبد الحق دحمان*

التحالف الشرقي المقبل: منظمة شنغهاي للتعاون والتوجه نحو العالمية

تناقش هذه الورقة بروز منظمة شنغهاي كقوة عملية لسياسات جديدة وتحالفات قوية، تتجه إلى بناء نظام دولي جديد، تكون فيه هذه المنظمة الوليدة ركناً أساسياً ضمن معادلة توازن القوى الدولية. فقد انتقلت المنظمة من وضع التنظيم الإقليمي ذي الهدف المحدّد إلى تنظيم دولي، وذلك ببلورة مواقف ورؤى مختلفة عن الرؤية الأميركية، ظهرت في موقف المنظمة من عديد الأزمات، كالملف النووي الإيراني والمشكلة الكورية، والأزمة السورية، وكذا قضايا الأمن في آسيا الوسطى. يضم هذا التنظيم الدولي الجديد في صفوفه عضوين دائمين في مجلس الأمن (روسيا والصين) وقوى نووية كالهند وباكستان، بصفة مراقب. تحاول الورقة الإجابة على سؤال مركزي: إلى أي حدّ يمكن لمنظمة شنغهاي للتعاون أن ترسّخ تعددية الأقطاب في العلاقات الدولية بعيداً عن الهيمنة الأميركية؟ وما أثر ذلك في معادلة التوازن الدولي؟

* باحث جزائري وطالب دكتوراه في العلوم السياسية، تخصص دراسات إقليمية، جامعة الجزائر ٣.

الفكر الإستراتيجي لنشأة منظمة شنغهاي للتعاون

أدت التحولات الجديدة التي نتجت عن الحرب الباردة إلى بروز مفاهيم جديدة، أكدت على أهمية التنسيق والتعاون بين الدول بدلاً من عوامل الفوضى والصراع التي هيمنت على تحليلات الواقعيين في نظرهم للعلاقات الدولية. وتعدّ الظاهرة التكاملية من المواضيع الجوهرية في هذا الصدد؛ وذلك بتركيزها على شق هام من التفاعلات الدولية، وهو التعاون وبرز التحليل الإقليمي للعلاقات الدولية بوصفه أحد المستويات التحليل الجديدة؛ لأنها تشكل تفاعلات متميزة وذات خصوصيات تختلف عن تفاعلات النظام الدولي. ويعدّ مفهوم الإقليمية الجديدة ذات البعد الاقتصادي أحد الاتجاهات المهمة في العلاقات الدولية المعاصرة، والذي تزامن مع إنشاء عدد من المنظمات الإقليمية. ففي الأمريكيتين ظهرت السوق المشتركة لدول أمريكا الجنوبية (MERCOSUR) عام ١٩٩١، كما تمّ إنشاء منطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (NAFTA) عام ١٩٩٤، وتأسست أيضًا رابطة جنوب شرق آسيا (ASEAN) عام ١٩٩٢ إلى جانب العديد من المنظمات الإقليمية.

تجد هذه التجمعات الإقليمية تأصيلها النظري في العديد من النظريات التي قامت بتفسير الظاهرة، أهمّها نظرية الوظيفية الجديدة لصاحبها أرنست هاس الذي انطلق من نقد أفكار دافيد ميتزاني (الوظيفية التقليدية) الخاصة بإمكانية الفصل بين الأمور السياسية والفنية في عملية التكامل، وقدم في هذا الصدد مفهوم الانتشار Spill Over، لتفسير التداخل بين هذه العوامل؛ فالتكامل في القطاعات الفنية (الوظيفية) سوف يؤدي إلى انتشار العملية بشكل تدريجي إلى مجالات أكبر بما في ذلك المجال السياسي.

كما أنّ بروز تهديدات أمنية عابرة للحدود (كالإرهاب والجريمة المنظمة...) فرضت على الدولة إعادة صياغة عقيدتها الأمنية للتكيف مع هذه التحديات المختلفة وذلك بالانتقال من مفهوم الأمن بمعناه الوستفالي إلى مفهوم الأمن الإقليمي، يعني التحوّل من مستوى الأمن القاعدي إلى مستوى الإقليمي الذي يستلزم توحيد الجهود الإقليمية لمواجهة التهديدات العابرة للحدود، ونجد في ذلك طروحات باري بوزان، وأولي ويفر اللذين طرحا مفهوم "مركب الأمن الإقليمي" بصفته إطاراً نظرياً بارزاً لبناء الأمن بشكل يجعل من المشاكل التي تواجهها الدولة صعبة الحل في إطار منفصل عن بعضهم البعض، وقدّم متغيّر الاختراق الذي يتناول معنى التدخل

مقدمة

نجم عن انهيار الاتحاد السوفياتي وانفراط عقد المعسكر الاشتراكي بروز الولايات المتحدة الأمريكية، بصفتها قطباً وحيداً في العلاقات الدولية، وما ترتّب على ذلك من سياسة الإملاء والتدخل وتجاهل الدول الأخرى، ما أدّى إلى رفض ضمني لهذا النزوع لدى أغلبية دول العالم، الأمر الذي أنتج نشوء تجمعات إقليمية رافضة لنزعة الهيمنة والتفرد الأمريكي. ويرى خبراء كثيرون أنّ منتدى شنغهاي للتعاون أصبح يمثل قطباً ولاعباً دولياً جديداً؛ إذ بات رمزاً لترسيخ تعددية الأقطاب في العلاقات الدولية؛ فقد انتقلت المنظمة من وضع التنظيم الإقليمي ذي الهدف المحدّد إلى تنظيم دولي، وذلك ببلورة مواقف ورؤى وصوغها مختلفة عن الرؤية الأمريكية، وهو ما ظهر في موقفها من عديد الأزمات، كالملف النووي الإيراني والمشكلة الكورية، والأزمة السورية، وكذا قضايا الأمن في آسيا الوسطى؛ كما أصبح يضمّ في صفوفه عضوين دائمين في مجلس الأمن (روسيا والصين) وقوى نووية (بالإضافة إلى روسيا والصين توجد الهند وباكستان بصفة مراقب) كل ذلك مؤشّر على بروز منظمة شنغهاي كنواة عملية لسياسات جديدة وتحالفات قوية، تتّجه إلى بناء نظام دولي جديد، تكون فيه المنظمة ركناً أساسياً ضمن معادلة توازن القوى الدولية

الإشكالية

إلى أي حدّ يمكن لمنظمة شنغهاي للتعاون أن ترسخ تعددية الأقطاب في العلاقات الدولية بعيداً عن الهيمنة الأمريكية؟ وما أثر ذلك في معادلة التوازن الدولي؟

محاور الدراسة

- الفكر الإستراتيجي لنشأة منظمة شنغهاي للتعاون
- منظمة شنغهاي للتعاون SCO: مسار والتطور
- منظمة SCO: من الانتشار الإقليمي إلى العالمي
- هل تقبل الولايات المتحدة الأمريكية بروز SCO كقطب مواز لها؟
- SCO ودورها في ترسيخ تعددية الأقطاب في العلاقات الدولية

آخر ٢٠٠٣ أصبح مبدأ في السياسة الخارجية الصينية في القرن الحادي والعشرين، وذلك لطمأنة دول جوارها الإقليمي من أن نمو الصين الاقتصادي والعسكري لا يمثل تهديداً للسلم والأمن بالمنطقة.

وسواء كانت الصين تشكل تهديداً لجيرانها أم لا، فهي مسألة تدخل في إطار النقاشات بين الواقعيين والليبراليين حول مضامين الصعود الصيني، وصعوبة التكهّن بنواياها المستقبلية، هل هي قوة وضع قائم تقبل قواعد النظام الدولي التي يسميها هيدلي بول "المجتمع الدولي"^(٣)، وهي حجة الليبراليين، أو أنها قوة تعديلية غير راضية^(٤)، هدفها تحقيق الهيمنة الإقليمية في آسيا بابتكار نسخة شبيهة بمبدأ مونروا، وبالطريقة نفسها التي سيطرت بها الولايات المتحدة الأمريكية على نصف الكرة الغربي وفق منطق الواقعية الهجومية^(٥)؟ وهي طروحات الواقعيين التي تروج لها الولايات المتحدة الأمريكية لمنع أي تقارب صيني مع دول آسيا الوسطى، وذلك بالتشكيك في نوايا الصين من صعودها.

فمبادرة الصين من إنشاء تجمع شنغهاي، تدخل في إطار إجراءات بناء الثقة بين دول آسيا الوسطى؛ وذلك لتبديد الشكوك والمخاوف من هذا الصعود، وبأن الصين قوة محافظة لا تسعى لقلب موازين القوى لصالح تعزيز نفودها في محيطها، وهو ما نصت عليه الأهداف التي جاءت في إعلان تأسيس المنظمة.

أما بالنسبة إلى روسيا الدولة الثانية في منظمة شنغهاي من حيث عناصر القوة، فإن لها رؤيتها الخاصة، إذ ترى أن التهديدات الأمنية التي يفرضها الإرهاب والحركات الانفصالية دوافع أساسية. لكن الأهم من ذلك، هو توسّع حلف الناتو في الخصرة الجنوبية التي تشكل مجالاً حيويًا بالنسبة إليها. فانهيار الاتحاد السوفياتي على يد القوة الأطلسية ظلّ يشكل صدمة لروسيا الجديدة الطامحة إلى بعث مشروعها الأوراسي الكبير، فهي لا تزال تحسب أنها في صراع دائم مع التالاسوكراتيا التي ما فتئت تحقق انتصاراتها للهيمنة وإقرار الأحادية القطبية.

المرتبط بالقوى الكبرى في مركبات الأمن الإقليمي المختلفة، لأجل حماية مصالحها وتعزيز نفوذها وهيمنتها على المواقع الحيوية، وكردة فعل على ذلك يسعى الاعتماد الأمني المتبادل إلى إنتاج ديناميات أمنية إقليمية لزيادة مستوى التنسيق الأمني بين الأطراف الإقليمية^(١). للحيلولة دون اختراق القوى الكبرى للمجال الحيوي للوحدات المكوّنة للمركب الإقليمي.

كما انتقد إيمانويل آدلر ومايكل بارت مفهوم "الهوية الأمنية الجماعية" التي طرحها كارل دويتش، واقترحا مفهوماً مطوّراً للجماعة الأمنية، وذلك بالحديث عن الظروف التي تدفع نحو التكامل لمواجهة التهديدات الأمنية المشتركة داخلية أ كانت هذه التهديدات أم خارجية، وذلك بالتنسيق خطوة طوعية. بالإضافة إلى وجود الثقة المتبادلة بين أعضاء الجماعة الأمنية^(٢) التي من شأنها أن تزيد من مستوى تلاحم الهوية بين الأطراف الإقليمية؛ الأمر الذي يدفعهم إلى تحقيق الأهداف التي تتلاءم وتوجهات الجماعة ككل، وهكذا تقلص من التنافس والشك الذين طرحتهما أدبيات الواقعية الجديدة.

وتختلف دوافع إنشاء المنظمات الإقليمية باختلاف المناطق الجغرافية، فقد تكون ذات أسباب ثقافية كما قد تكون ذات أسباب اقتصادية — سياسية، أو لأسباب أمنية جيوسياسية سببها الشعور بضرورة التكامل لمواجهة التهديدات المشتركة أو نتيجة لاختراق قوى أجنبية لإقليم هذه الدول، وهو الحال بالنسبة إلى منظمة شنغهاي للتعاون SCO عام ٢٠٠١ التي أنشئت لمواجهة الشرور الثلاثة المتمثلة في التطرف والإرهاب والحركات الانفصالية، ولكن أيضاً رفض كل من روسيا والصين الدول المحورية في المنظمة سياسة الهيمنة الأمريكية في انتهاجها سياسة القطب الواحد والتدخل في شؤون وسط آسيا.

أخذت الصين بزمام المبادرة بإنشاء خماسي شنغهاي ١٩٩٦ الذي ضم بالإضافة إليها كلاً من روسيا وكازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان، ولاشك أن المبادرة الصينية تشكل أحد التوجهات الإستراتيجية للقوة الصينية الصاعدة في رؤيتها لدوائرها الإقليمية، وخصوصاً الدائرة الإقليمية التي تحوي دول آسيا الوسطى، فشعار "نمو الصين السلمي" China's Peaceful Rise الذي استخدمه النائب الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني زهينغ بيج يانغ في أحد المنتديات الآسيوية

3 Jeffrey w.legro, "What China Will Want: The Futur Intentions of a Rising Power", *Perspectives on Politics* (September 2007), p. 516, <https://pages.shanti.virginia.edu/legro/files/2011/03/Legro2007.pdf>

4 John J. Mearsheimer, "Can China rise peacefully?", *The National interest*, 25 october 2014, viewed 12/04/2014, <http://nationalinterest.org/commentary/can-china-rise-peacefully-10204>

5 Ibid.

1 Barry Buzan & Ole wever, *Regions and Powers: the Structure of International Security* (New York: Cambridge University Press, 2003), p. 45, <http://blogribranco.files.wordpress.com/2010/04/buzan.pdf>

٢ عامر مصباح، *المنظورات الإستراتيجية في بناء الأمن*، (القاهرة: دار الكتاب الحديث، ٢٠١٢)، ص ٢٥٠.

أهمية مركزية، تجعل التركيب الجيوبوليتيكي للجنوب الأوراسي ذا دلالة جيوسياسية.

من هذا المنطلق فإن منظمة شنغهاي في المنظور الروسي تعدّ تكتيكًا أوليًا ضمن مشروع أوراسيا الكبير، هذا ما دلّت عليه توجّهات القيادة الروسية نحو الجنوب وإعطائها الأولوية بالنسبة إلى أمن روسيا، من خلال إقامة روابط وأحلاف على أساس النموذج التيلوكراتي بصفته بديلاً للبرامج التي تتضمن عناصر أطلسية تلاسوكراتية^(٦).

وكما أكدنا سابقاً، إنّ أهمية التنسيق والتعاون بين الدول على المستويين الإقليمي والعالمي أصبح سمة مميزة للعالم المعاصر، وهو ما أصبحت تدركه الصين وروسيا، خاصة أنّ العلاقات الصينية الروسية من حيث طبيعتها لا تؤثر في أمن الدولتين فحسب بل تحدث أثراً عميق المدى في أمن منطقة آسيا.

على المستوى الواقعي عملت الشكوك المتبادلة بين الصين وروسيا على الحد من تطوّر الشراكة الإستراتيجية بينهما نظراً لحالة الشك المتبادل، هذا ما انعكس على أولويات الصين وروسيا في نظرتهما لمنظمة شنغهاي؛ فالصين تنظر إليها في إطار مقاربة اقتصادية، في حين تنظر روسيا إليها من زاوية أمنية جيوسياسية.

غير أنّ قواسم مشتركة تفرض على روسيا والصين توحيد جهودهما في إطار منظمة شنغهاي انطلاقاً فرضيات تشارلز كيبشان حول إيجاد مناطق سلام مستقرة، وكيف يمكن تحويل العداوة إلى صداقة، وبناء هوية مشتركة وبدلاً عن الهويات المتعارضة^(٧). فالتفاعلات بين الصين وروسيا تتحدد أساساً كردة فعل على سياسات الولايات المتحدة الأميركية، ومحاولاتها الرامية للحفاظ على مكانتها بوصفها القوة الأولى والوحيدة والأخيرة^(٨)، والحيلولة دون بروز قوى منافسة على شاكلة الصين وروسيا.

فسعي الولايات المتحدة نحو ترسيخ الأحادية القطبية وكذا اختراق المبادئ التي ظلت تسيّر النظام الدولي منذ نشأته كمبدأ احترام السيادة واستقلال الدول، وعدم التدخل التي أضحت لا وجود لها في ظل الهيمنة الأميركية. أمام هذا الوضع فإنّ روسيا والصين أضحت تدرك ضرورة التقارب لحماية مصالحهما الاقتصادية والأمنية ووقف

في حين يرى الكسندر دوغين أنّ هزيمة التيلوكراتيا أمام التالاسوكراتيا لا يمثّل إلا ظاهرة مؤقتة وتعود أوراسيا بعدها إلى رسالتها القارية^(٩). وقدّم مؤسس المذهب الأوراسي الجديد رؤيته لمستقبل روسيا وكيف يمكنها إنقاذ هوية بيت أوراسيا المشترك في نظريته التي سمّاها "نظرية السياسية الرابعة". إذ انتقد النظرية السياسية الأولى الليبرالية التي ظهرت نتيجة الإصلاحات اللوثرية التي تمثّل رمزاً من رموز البروتستانتية، ثم كردة فعل على النظام البرجوازي، ظهرت النظرية السياسية الثانية ممثلة في الشيوعية، ثم ظهرت الفاشية لاحقاً. وقد تحالفت الأولى مع الثانية وفازت على الثالثة (الفاشية)، ثم بعد ذلك درات حرب باردة بين النظريتين الأولى والثانية وانتصرت الأولى على الثانية. والآن الليبرالية هي الوحيدة المتبقية^(١٠) (فرانسيس فوكوياما). وتعدّ "نظرية السياسية الرابعة" نموذجاً جديداً وبديلاً عن الشيوعية والفاشية التي زالت، ولكن الأهم من ذلك بديلاً عن الليبرالية التي وصلت إلى حالة من العدمية. وعليه، فهذه النظرية مناقضة لعالم مابعد الحداثة، كما تبرز الحاجة إلى عالم متعدّد الأقطاب، لذا يرى دوغين أنّه إذا ما قامت روسيا بالانخراط في عالم الليبرالية ستقوم على خسارة هويتها الثقافية والعرقية^(١١).

ويجب التنويه في هذا الصدد أنّ هناك تطابقاً بين تطّلات دوغين الفلسفية الأوراسية، والممارسة البراغماتية التي ينتهجها الرئيس بوتين، بغية إنشاء الفضاء الأوراسي الجديد الممتد من فلاديفوستوك من المحيط الهادي شرقاً إلى القناة المانش غرباً.

وتجسّداً لمشروع روسيا بإقامة اتحاد أوراسي مركزه موسكو، يرى دوغين أنّ على روسيا تجميع الدومينويات السوفياتية السابقة التي تبدأ من الجنوب الروسي (وتضمّ كلّاً من شمال شبه جزيرة البلقان من صربيا إلى بلغاريا، ومولدافيا، وأكرانيا الجنوبية والشرقية، ومنطقة روستوف وإقليم كراسنودار، والقوقاز، وساحل بحر قزوين الشرقي والشمالي، ودول آسيا الوسطى)^(١٢)، لكن أحد المطالب الأكثر إلحاحاً لتجميع هذه الدومينويات يبدأ من آسيا الوسطى التي تعدّ ذات

٦ الكسندر دوغين، أسس الجيوبوليتيكا، عماد حاتم (مترجم، محقق) (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤)، ص ٨، ٩.

٧ الكسندر دوغين، "النظرية السياسية هي مقاومة للوضع الراهن"، The Fourth Political Theory، على الرابط:

<http://www.4pt.su.k0.gfns.net/en/node/626>

٨ الكسندر دوغين، "كتاب النظرية السياسية الرابعة"، The Fourth Political Theory، شوهد في ٢٠١٤/٤/١٢، على الرابط:

<http://www.4pt.su/ar/content/ktb-lnzry-lsysis-lrb>

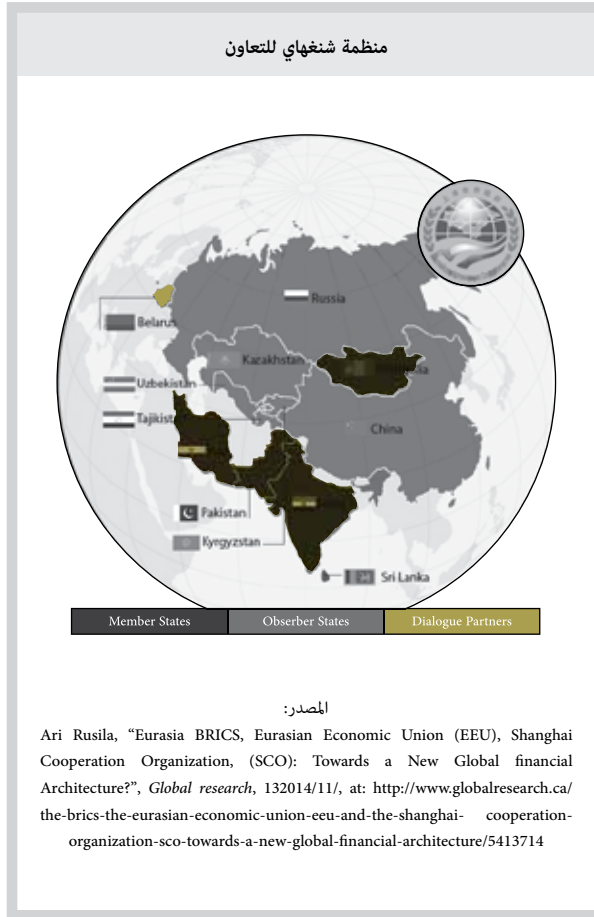
٩ المرجع نفسه، ص ٣٩٥.

١٠ المرجع نفسه، ص ٤١٢.

11 Charles A. Kupchan, "Enmity into amity How peace Break Out", International Policy Analysis, April 2011, p. 1, at: <http://www.cfr.org/world/enmity-into-amity-peace-breaks-out/p24599>

١٢ زيبغنيو بريجنسكي، رقعة الشطرنج الكبرى، عمر الأيوبي (مترجم) (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٩)، ص ١٩٨.

قرغيزستان عام ١٩٩٩^(١٦) والخامسة في دوشنبه عاصمة طاجيكستان عام ٢٠٠٠، وفي الاجتماع السنوي السادس الذي عقد في عام ٢٠٠١ في شنغهاي انضمت دولة أوزبكستان إلى الاتفاقية، عندها أعلن الزعماء الستة لهذه الدول تأسيس منظمة شنغهاي للتعاون (SCO) ليصبح الاسم الجديد "منظمة شنغهاي للتعاون" عنواناً لتطور آلية العمل، كما تم توقيع ميثاق المنظمة الذي يعدّ البناء القانوني لهذه المنظمة الدولية الجديدة^(١٧).



والموضوع المتناول في هذا المقال يحلّل توجه منظمة شنغهاي للتعاون التي أثار بروزها العديد من الأسئلة حول أهدافها.

١٦ شكلت قمة بشكيك المنعقدة في أغسطس/ آب ١٩٩٩ انعطافاً متميزاً في تطور الخماسي، إذ صدر عنها إعلان سمي "إعلان بشكيك" تضمن ١٢ بنداً رسمت ملامح تطلعات إقليمية ودولية جديدة تجاوزت الأطر المعلنة لعمل الخماسي، واتضحت فيها ملامح الأهداف الرئيسية التي يطمح المنتدى إلى تحقيقها.

١٧ سامي عمارة، "رؤساء منظمة شنغهاي يوقعون ميثاق المنظمة"، المركز العربي للمعلومات، ٢٠١٣/١٢/٧، شوهدي في: ٢٠١٤/٥/٤ على الرابط: <http://www.arabsino.com/articles/13-12-31/10726.htm>

التغلغل الأمريكي في آسيا الوسطى، وذلك بإزالة أسباب الولايات المتحدة وذرائعها للتدخل في المنطقة التي تعدّ الخاصرة الطرية لروسيا، كما هي الحبل المشدود على عنق الصين^(١٨)، لذا فمبدأ "العدو المشترك" المتمثل في العداء للأطلسية أضحى العنصر الرابط في البناء الجيوبوليتيكي الروسي الصيني وفعالية هذا العنصر غير مشكوك فيها^(١٩).

منظمة شنغهاي للتعاون SCO: النشأة والمسار

لقد تمّ إنشاء منظمة شنغهاي للتعاون (SCO) في ٢٠٠١/٦/١٥ م، غير أنّ بدايتها الفعلية تعود إلى عام ١٩٩٦، حين بادرت الصين بتشكيل منظمة "شنغهاي خمسة" مع دول الجوار (روسيا، والصين، وكازاخستان، وقيرغيزستان، وطاجيكستان)؛ إذ كان الدافع الأمني الهدف الأساسي لإنشاء هذه المنظمة^(٢٠)، وهو القضاء على الحركة التحررية الإيغورية المسلمة، وتصفية ما تسمّيه دول المنظمة بالحركات الأصولية الإسلامية في المنطقة. وكذا حلّ الخلافات الحدودية، والاتفاق على إجراءات ثقة في المجال العسكري لتخفيف التوتر في المناطق الحدودية. وكانت لجان خبراء من الدول الخمس قد عقدت اجتماعات مطوّلة في عامي ١٩٩٤ - ١٩٩٥، ومن ثمّ توقيع اتفاقيات ثنائية بهذا الشأن، وقد انتهت هذه اللقاءات إلى قمة شنغهاي في أبريل ١٩٩٦ التي أسفرت عن توقيع اتفاقية حول إجراءات الثقة في المجال العسكري وودشت ميلاد الخماسي؛ وفي هذا الاجتماع تمّ الاتفاق على عقد اجتماعات قمة سنوية في عاصمة إحدى الدول الخمس؛ فعقدت القمة الثانية في موسكو عام ١٩٩٧ (إذ وقّعت معاهدة تخفيض القوات المسلحة على الحدود في ما بينها) والقمة الثالثة في ألماتي في كازاخستان عام ١٩٩٨، والرابع في بشكيك عاصمة

١٣ إلياس قسايسية، "العلاقات الروسية الصينية وأثرها على التوازن الدولي في القرن الحادي والعشرين"، رسالة ماجستير، (غير منشورة)، كلية علوم سياسية وعلاقات دولية، جامعة الجزائر ٣، ٢٠١٢، ص ٦٨.

١٤ دوغان، ص ٢٦١، ٢٦٢.

١٥ رضا محمد هلال، "منظمة شنغهاي لنظام دولي جديد"، يومية الخليج، (الإمارات العربية المتحدة)، ٢٠١٣/٩/٢٦، شوهدي في: ٢٠١٤/٤/٥، على الرابط: <http://www.alkhaleej.ae/supplements/page/725fc55f-c383-4031-b737-4a5a8aef7bec>

منظمة شنغهاي S.C.O (الدول الأعضاء، والمراقبون، وشركاء الحوار)

وقد توالى القمم ليتّم فتح الأبواب بعدها لعضويات جديدة، إذ تمّ قبول كل من منغوليا عام ٢٠٠٤، والهند وباكستان، وإيران عام ٢٠٠٥، وأفغانستان في ٢٠١٢ بصفة مراقب في المنظمة، وسريلانكا، وبيلاروسيا، وتركيا عام ٢٠١٢ بصفة شريك في الحوار^(١٨). كما أعربت العديد من الدول عن رغبتها في الانضمام إلى المنظمة (أوكرانيا^(١٩)، والعراق، والولايات المتحدة الأميركية ٢٠٠٦)، إلّا أنّ الصين رفضت انضمام الولايات المتحدة، إذ صرّح مندوب الصين في المنظمة "إنّ أمرًا جيّدًا أنّ منظمة شنغهاي للتعاون ولا تدخل الولايات المتحدة الأميركية فيها بأيّ صفة"^(٢٠).

ونصّ الإعلان عن تأسيس المنظمة وأنها وجدت لتحقيق الأهداف الآتية:

- تعزيز سياسات الثقة المتبادلة وحسن الجوار بين الدول الأعضاء.
- تطوير التعاون الفاعل بينها في السياسة والتجارة والاقتصاد، والعلوم والتكنولوجيا والثقافة، وفي شؤون التربية والطاقة والنقل والسياحة وحماية البيئة.
- العمل على توفير السلام والأمن والاستقرار في المنطقة.
- العمل على تطوير الأفكار وتقديمها للوصول إلى نظام سياسي واقتصادي عالمي ديمقراطي، عادل وعقلاني متوازن.

وقد جرى التركيز منذ الإنشاء على أنّ الهدف المباشر لدول منظمة هو مواجهة المخاطر وأهمها: الإرهاب وحركات الانفصال في بعض أقاليمها، والتطرّف والديني أو الإثني، كذلك تمّ تأكيد على محاربة تجارة المخدرات وتهريبها عبر الحدود وفق آلية مشتركة بينها. إلّا أنّه يمكن الإشارة في هذا الصدد إلى اختلاف الرؤى والمصالح بين كل من

١٨ "لافروف: موسكو تدعو إلى انضمام الهند وباكستان إلى منظمة شنغهاي للتعاون"، روسيا اليوم، ٢٠١٢/٤/١٣، شوهدي في: ٢٠١٤/٤/٥، على الرابط: <http://arabic.rt.com/news/583018->

١٩ "أوكرانيا تعلن أنها تريد الحصول على وضع مراقب في منظمة شنغهاي للتعاون"، روسيا اليوم، ٢٠١٢/٨/٢٥، شوهدي في: ٢٠١٤/٤/٥، على الرابط: <http://arabic.rt.com/news/586945->

٢٠ ليونيد غوسيف، "منظمة شنغهاي للتعاون، الآفاق والخلافات"، روسيا اليوم، ٢٠١٦/٨/٢٥، شوهدي في: ٢٠١٣/٦/٢٥، على الرابط: <http://arabic.rt.com/prg/telecast/657412>

الجدول (١)

منظمة شنغهاي للتعاون: القمم المنعقدة منذ النشأة

التاريخ	البلد	المدينة
١٤ جوان ٢٠٠١	الصين	شنغهاي
١٧ جوان ٢٠٠٢	روسيا	سان بطرسبورغ
٢٩ ماي ٢٠٠٣	روسيا	موسكو
١٧ جوان ٢٠٠٤	أوزبكستان	طشقند
٥ جويلية ٢٠٠٥	كازخستان	أستانا
١٥ جوان ٢٠٠٦	الصين	شنغهاي
١٦ أوت ٢٠٠٧	قرغيزستان	بيشكك
٢٨ أوت ٢٠٠٨	طاجيكستان	دوشنبه
١٥، ١٦ جوان ٢٠٠٩	روسيا	ريكتنبرغ
١٠، ١١ جوان ٢٠١٠	أوزبكستان	طشقند
١٤، ١٥ جوان ٢٠١١	كازخستان	أستانا
٦، ٧ جوان ٢٠١٢	الصين	بيجين
١٣ سبتمبر ٢٠١٣	قرغيزستان	بيشكك
١٢ سبتمبر ٢٠١٤	طاجيكستان	دوشنبه

المصدر: من إعداد الباحث

روسيا والصين ودول آسيا الوسطى من إنشاء منظمة شنغهاي^(٢١)، فروسيا ترى فيها أداة لتحقيق أغراض جيوسياسية وإستراتيجية بعيدة المدى، أما الصين فتري في المنتدى مجالاً لتأمين موارد الطاقة خدمة لقفزتها الاقتصادية، أمّا حكومات دول آسيا الوسطى ذات التوجّه العلماني فتعدّ المنتدى ملجأً يحميها من المد الإسلامي، ويؤمن لها تعاملًا متوازنًا مع المراكز الدولية الكبرى مثل أميركا وأوروبا من جهة والصين وروسيا من جهة أخرى.

وعلى الرغم من ذلك فإنّ دول الخماسي تجمعها الكثير من المصالح المشتركة في هذا المنتدى، فهي تقع على امتداد جغرافي واحد، وتخشي

21 Marat Nurgaliyev, "Development of the Shanghai Cooperation Organization and Diplomacy of Japan Towards the central Asia", (Tokyo, 2008), p 14, 15, at: http://www2.jiia.or.jp/pdf/fellow_report/080317-Marat_Nurgaliyev.pdf

والتجارة والاقتصاد والعلوم والتكنولوجيا والثقافة وفي شؤون التربية والطاقة والنقل والسياحة وحماية البيئة، والعمل على محاربة الجريمة المنظمة، ومواجهة المخاطر المشتركة التي تواجهها وأهمها: الإرهاب وحركات الانفصال في بعض أقاليمها، والتطرف الديني، كذلك محاربة تجارة المخدرات وتهريبها عبر حدودها، وفق آلية مشتركة بينها، آخرها توفير السلام والأمن والاستقرار في المنطقة. وهذه كلها قضايا داخلية تعاني منها الدول الأعضاء.

ويرى الكثير من المحللين أن الفترة الممتدة من عام ٢٠٠٥ حتى القمة الأخيرة في دوشنبه ٢٠١٤، انتقلت المنظمة من وضع التنظيم الإقليمي ذي الهدف الأمني المحدود وتعزيز التعاون في مجالات التجارة والاستثمار الطاقة والنقل والسياحة، إلى التنظيم الدولي الفاعل والهادف لتأسيس نظام عالمي متعدد الأقطاب، وتخفيف هيمنة الولايات المتحدة القطب العالمي الوحيد على قضايا الأمن والتنمية على المستويين الإقليمي والعالمي^(٣٣).

إذ دعا البيان الختامي لاجتماع دول المنظمة في شنغهاي عام ٢٠٠٥، الولايات المتحدة إلى تحديد موعد لإغلاق قواعدها العسكرية في دول آسيا الوسطى، ما شجّع جمهورية أوزبكستان على طرد القوات الأمريكية من قاعدة كارشي خان آباد الجوية، وجمهورية قيرغيزيا على إغلاق قاعدة ماناس في مطار بيشكيك. بينما طالب البيان الختامي للمنظمة في اجتماع القمة التاسعة بمدينة في مدينة إيكاترينبرغ Yekaterinburg في منطقة الأورال (روسيا) خلال الفترة ما بين ١٥ و١٦ يونيو/حزيران ٢٠٠٩ بالتوجه إلى النظام المتعدد الأقطاب في العالم باعتباره أمراً لا مفر منه في ظل وجود دلالات متنامية لقدرة المنظمات الإقليمية على حلّ المشاكل والأزمات الكونية، وإعادة صياغة نظام مالي واقتصادي عالمي قائم على العدالة والمساواة.

كما دعت القمة الثالثة عشرة قبل الأخيرة يومي ١٣ و١٤ سبتمبر/أيلول ٢٠١٣ التي انعقدت في العاصمة القيرغيزية بيشكيك، في بيانها الختامي: المجموعة السداسية إلى استئناف المفاوضات السداسية بسرعة حول المشكلة النووية في شبه الجزيرة الكورية، وكذا بناء أفغانستان السلمية والمستقلة، وإعلاء الدور المحوري للأمم المتحدة في عملية التسوية السلمية للقضية الأفغانية، وتهئية الظروف المواتية للإسراع في إحلال السلام وإعمار أفغانستان.

كما كان لمنظمة شنغهاي موقف من الأزمة السورية، إذ دعت القمة الأخيرة التي انعقدت في دوشنبه ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠١٤، إلى تسوية

بنفس القدر تقريباً طغيان الهيمنة الأميركية في العلاقات الدولية، وخطر المد الإسلامي القادم من أفغانستان؛ فالصين تخشى امتداده إلى تركستان الشرقية، بينما تخشى روسيا تواصله مع جمهوريات الخاصرة الروسية الهشة مثل بشكيرستان وتتارستان وكذلك اتصاله بالقوقاز والشيشان.

وتمتلك منظمة شنغهاي للتعاون من الإمكانيات ما يؤهلها لأن تكون أحد الأقطاب الدولية في النظام الدولي الراهن، إذ تعدّ الدول الأعضاء في منظمة شنغهاي للتعاون ذات قوة اقتصادية كبيرة من حيث ما تملكه من معطيات طبيعية (إذ تبلغ مساحتها ٣٠ مليون كلم مربع ما يعادل ٣/٥ من مساحة القارة الأوراسية)، وتسيطر على ١/٥ الاقتصاد العالمي، ١/٨ احتياطي النفط العالمي)، ومعطيات بشرية (تمثل الدول الأعضاء في المنظمة ٦٠٪ من سكان العالم أي ما عدده ١,٥ مليار نسمة)، ومعطيات عسكرية (تضمّ دول المنظمة أربع دول نووية وأخرى على العتبة النووية كإيران وربما كوريا الشمالية مستقبلاً)، هذا ما يؤثر في التوازن الإقليمي بالقارة؛ ما يجعل المنظمة تؤثر من خلال ثقلها السكاني والبشري في مختلف القرارات والسياسات التي تربط بالقارة الآسيوية ومنطقة أوراسيا.

هذا بالإضافة إلى رفض كل من الصين وروسيا سياسة الهيمنة الأميركية في انتهاجها سياسة القطب الواحد، والتدخل في الشؤون الداخلية للدول وسط آسيا وتايوان والتبّت ومحاصرة روسيا في منطقة شرق أوروبا وقطع طريقها إلى البلقان بانتزاع أوكرانيا وإعلان بحر قزوين منطقة مصالح حيوية للولايات المتحدة الأميركية^(٣٣). وبهذا التكوين الجيوبولتيكي تمتلك شنغهاي إمكانيات نوعية كبيرة، تؤهلها لتكون واحدة من أهم المنظمات الإقليمية، وأحد الأقطاب الجديدة في العلاقات الدولية.

منظمة SCO: من الانتشار الإقليمي إلى العالمي

عالجت منظمة (SCO) منذ نشأتها سنة ٢٠٠١ الكثير من المشكلات التي أنشئت من أجلها، كتعزيز الثقة المتبادلة وحسن الجوار بين الدول الأعضاء، إلى جانب تطوير التعاون الفاعل بينها في السياسة

٢٢ علي صالح، "منتدى شنغهاي.. هل يتحول إلى قطب عالمي جديد؟" الجزيرة نت، ٢٠١٤/١٠/٣، شوه في: ٢٠١٤/٤/٥، على الرابط: <http://bit.ly/1sbXDvu>

هل تقبل الولايات المتحدة ببروز SCO قطبًا موازيًا لها ؟

تنظر الولايات المتحدة إلى أي منظمة دولية لا تشترك فيها كمنظمة مناهضة لها^(٢٧)، وقد كان أن تقدّمت بطلب للانضمام إلى منظمة شنغهاي عضوًا مراقبًا عام ٢٠٠٥، إلا أنه تمّ رفضها من الصين، إذ أصبح يستعري كل اجتماع لدول منظمة انتباه الولايات المتحدة الأميركية واهتمامها، ولو لسبب واحد هو أن هذه المنظمة التي تأسست منذ ١٣ عامًا تضمّ في عضويتها اثنتين من دول العالم الرئيسة - الصين وروسيا - ومن هنا فإنّ الدول الغربية الرئيسة تنظر بعين خوف إلى هذه المنظمة، مشبهة في أنها تتوجّه لمنازعة العالم الغربي ولا سيما أنه تدور في فلك منظمة شنغهاي دول مهمة مثل إيران وأفغانستان والهند وباكستان^(٢٨). فبالنسبة إلى الولايات المتحدة الأميركية، من الواضح أنّ هناك تضاربًا في المصالح الإستراتيجية بين الدول الكبرى (روسيا، والصين، والولايات المتحدة الأميركية) في آسيا الوسطى، الأمر الذي يعدّ مؤشرًا واضحًا للعودة إلى حقبة الحرب الباردة والى سياسة الاستقطاب الدولي^(٢٩).

إذ تعدّ منطقة آسيا الوسطى في طليعة الاهتمامات الأميركية، نظرًا لما تتمتع به من موقع إستراتيجي متميز، فهي بمنزلة المكافأة الجيوبولوتيكية الرئيسة للولايات المتحدة الأميركية (أوراسيا)، ومفتاح السيطرة على آسيا الوسطى، إذ تمكّنها من التحكم في العديد من القوى الصاعدة كالصين وروسيا وإيران، لذا تبذل الإدارة الأميركية جهودًا مضنية من أجل تقييد النفوذ الصيني والإيراني والروسي في المنطقة^(٣٠)، من خلال الحيلولة دون نشوء أي تحالف بين دول آسيا الوسطى ودول شرق آسيا وعرقلة بروز قوة مركزية في القارة الآسيوية قادرة على منافستها حتى في المستقبل البعيد، وذلك بنسف أي تقارب صيني روسي يمكن أن يفضي إلى تحالف بينهما، ما يعني أنّ الولايات المتحدة ستحاول قدر الإمكان تقويض هذه القوة وتطويقها لأسباب إستراتيجية جيوسياسية.

٢٧ فيودور لوكيانوف، "منظمة شنغهاي نموذج أولي للعالم الجديد"، أنباء موسكو، ٢٠١٢/٦/٨، شوه في: ٢٠١٤/٤/٦، على الرابط:

<http://anbamoscw.com/opinions/20120608/375508665.html>

٢٨ المرجع نفسه.

29 Julie Boland, "Ten Years of the Shanghai Cooperation Organization: A Lost Decade? A Partner for the U.S.?", Policy paper presented at the 21st Century Defense Initiative at Brookings, Washington, 20/6/2011, pp. 26. 27, at: <http://brook.gs/15ZFv8>

30 Nurgaliyev, p. 14.

الأزمة السورية بالطرق السياسية والدبلوماسية وذلك عبر حوار سوري شامل^(٢٤)، كما رحّبت بنجاح عملية تدمير الأسلحة الكيماوية التي انتهت تحت إشراف دولي، وبالتوازي مع ذلك رحّب بيان دوشنبه بتوقيع بروتوكول "مينسك" الرامي إلى تنفيذ خطة الرئيس الأوكراني ومبادرة الرئيس الروسي حول تسوية الأزمة الأوكرانية^(٢٥).

وفي معرض التغير الذي طرأ على المنظمة شنغهاي للتعاون على مدار أكثر من عقد من الزمن، يؤكّد المحللون أنها تحوّلت إلى لاعب دولي كبير، وأصبحت رمزًا لترسخ تعددية الأقطاب في العلاقات الدولية، ومما يدل على صحة ذلك؛ مواقف المنظمة المشترك حيال المسائل الإقليمية كسورية وإيران، وكذا انخراط الهند وباكستان وأفغانستان في فلك نشاطات المنظمة.

على الصعيد الدولي، نجد القوتين الكبيرتين في المنظمة روسيا والصين، تتفقان على عديد المسائل كرفضهما لتركيبية النظام الدولي الحالي وتوزيع القوة فيه، إذ لا يفوت مسؤولي الدولتين فرصة إلاّ وقدموا تصريحات مشتركة حول رفض النظام الأحادي القطبية، مع التركيز على محورية الأمم المتحدة ومجلس الأمن في مجال حفظ السلم والأمن الدوليين. ونظرًا لفشل جهود الدولتين المنفردة لمنع الولايات المتحدة الأميركية من المضي في إتمام مشروع الدرع الصاروخي، لم تجد روسيا والصين ومن ورائهما دول آسيا الوسطى، بدءًا من تنسيق جهودهما في هذا المجال، للحيلولة دون عسكرة الفضاء الخارجي من خلال مشاريع قرار اقترحتهما الدولتان في الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن^(٣٦).

فهل تنجح معاهدة شنغهاي للتعاون (SCO) بتبنيها بعض المواقف تجاه القضايا الدولية في وضع اللبنة الرئيسة لنظام عالمي جديد متعدد الأقطاب، يحل مكان النظام الحالي "وحيد القرن" (كما يسمى) الذي تهيمن عليه الولايات المتحدة؟ وهل تكون منظمة معاهدة شنغهاي التي تضم الآن ربع سكان الأرض، وقد تضم نصف البشرية في حال انضمام الهند وباكستان ومنغوليا إليها، حجر الأساس في نظام عالمي تعددي جديد؟

٢٤ "قمة 'شنغهاي'، تدعو إلى تسوية الأزمة السورية سياسيًا"، روسيا اليوم، ٢٠١٤/٩/١٢، على الرابط:

<http://arabic.rt.com/news/758010>

٢٥ المرجع نفسه.

٢٦ نغوم تشومسكي، الهيمنة أم البقاء، السعي الأميركي إلى السيطرة على العالم، سامي الكعكي (مترجم) (بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤)، ص ٢٧٠.

وفي سابقة هي الأولى من نوعها، أجريت مناورات عسكرية مهمة بين روسيا والصين، تحت اسم "مهمة السلام ٢٠٠٥"، وشاركت فيها مختلف أنواع الأسلحة العسكرية من سفن، وغواصات، وقاذفات، ومروحيات، وطائرات قتالية، بالإضافة إلى اتساع نطاقها الجغرافي وحجم القوات العسكرية التي تشارك فيها (حوالي عشرة آلاف جندي)، كما رفضت منظمة شنغهاي الموافقة على طلب أميركي بحضور مراقبين عسكريين أميركيين لمتابعة تدريبات "مهمة السلام ٢٠٠٧" التي أجرتها المنظمة في إطار ما يسمى "مكافحة الإرهاب"، الأمر الذي أضفى المزيد من الأهمية على تلك المناورات، وعلى الرغم من تأكيد الصين وروسيا أنَّ تلك المناورات لا تستهدف طرفاً ثالثاً، وعلى الرغم مما تحمله من اسم (مهمة السلام) إلا أنَّ هذا لا ينفي بحال من الأحوال الأهداف والأبعاد الإستراتيجية البعيدة المدى لتلك المناورات؛ الأمر الذي دفع بالولايات المتحدة إلى مراقبة تلك المناورات بشكل دقيق^(٣٤).

ومنذ تأسيسها اكتسبت المناورات العسكرية التي تقوم بها المنظمة (كانت آخرها المناورات تحت مسمى بعثة "السلام" التي أجريت بالصين في آب/أغسطس ٢٠١٤) قدراً متزايداً من الطموح، فتطوّرت من مناورات ثنائية إلى مناورات تضمّ جميع البلدان الأعضاء^(٣٥)؛ ولا يمكن فهم تلك المناورات بمعزل عن التوجهات الصينية الروسية بشأن مستقبل النظام الدولي بشكل عام، ومنطقة آسيا الوسطى بشكل خاص؛ فقد استطاعت البلدان، خلال السنوات الأخيرة، خلق مجال للتعاون المشترك في ما يتعلق بالعمل على إعادة هيكلة النظام الدولي في الاتجاه نحو نظام متعدد الأقطاب، وطرح في هذا السياق تشكيل المحور الصيني الروسي أساساً لقطب مواز. وقد نجحت البلدان في السياق ذاته في خلق إطار يؤسس لفضاء مشترك لهذا "القطب" بوصفه نقطة انطلاق أولى، تمثّل في تأسيس منظمة شنغهاي التي تبنّت في قمة ٢٠٠٥، مطالبة الولايات المتحدة الأميركية وحلفائها بوضع جدول زمني لإغلاق قواعد العسكرية في آسيا الوسطى، فعمدت جمهورية أوزبكستان إلى طرد القوات الأميركية من قاعدة كارشي خان أباد الجوية، وقاعدة ماناس في مطار بيشكيك بقرغيزيا.

لقد سعت موسكو وبكين لتقوية تجمّع دول شنغهاي للتعاون أمام المد الأميركي في آسيا الوسطى؛ وذلك بإضافة أهداف إستراتيجية جديدة سياسية وعسكرية وأمنية واقتصادية، فهي بمنزلة ضمانة للأمن والاستقرار لدول المنظمة وآسيا الوسطى.

٣٤ عمارة.

٣٥ باسل الحاج جاسم "بدء مناورات منظمة شنغهاي 'مهمة السلام ٢٠١٢' في طاجيكستان"، أنباء موسكو، ٢٠١٢/٨/٦، شوهد في: ٢٠١٤/٤/٦، على الرابط: <http://bit.ly/1w5K2W1>

لذا أقامت الولايات المتحدة الأميركية علاقات أمنية واقتصادية مع بعض دول آسيا الوسطى وبالتنسيق مع حلف الناتو، فبعض هذه الدول أعضاء في برنامج الناتو للمشاركة من أجل السلام، ويضم هذا البرنامج كلاً من تركمنستان، وقرغيزستان، أوزبكستان، كازاخستان، وطاجيكستان. ومنذ العام ١٩٩٦ بدأت دول آسيا الوسطى في الدخول في تدريبات على مكافحة الإرهاب وحفظ السلام. وفي الجانب الاقتصادي مازالت الأطماع الأميركية قائمة تجاه غاز تركمنستان عبر بحر قزوين ونفط كازخستان؛ إذ يمثل هذا الأمر أهمية اقتصادية قومية للولايات المتحدة الأميركية ولأمريكا القومية.

كما عملت الولايات المتحدة على خلق منظمة (٥ + ٢) في آسيا الوسطى كبديل لمنظمة شنغهاي تحقق أهدافها التكتيكية والإستراتيجية والتي تضم بالإضافة إلى أوزبكستان وطاجيكستان وقرغيزستان وكازاخستان وتركمنستان، كلاً من أفغانستان وباكستان كي تضغط على كل من الصين وروسيا وإيران وحتى على باكستان نفسها من أجل تقوية تأثيرها في موضوع بحر قزوين، فهو يزرخ بالثروات النفطية والغاز وبالمعادن النفيسة أيضاً. بعبارة أخرى تريد واشنطن عبر هذه المنظمة البديلة (٥ + ٢) حضوراً سياسياً وعسكرياً وأمنياً واقتصادياً، يبعد ويحجّم ويقزّم الدور الروسي والصيني المتعاضدين^(٣٦).

من جهة أخرى فعلى الرغم من أنَّ إعلان تأسيس "منظمة شنغهاي" ينصّ على أنَّ المنظمة ليست تحالفاً موجهاً ضد دول أو مناطق أخرى^(٣٧)، إلا أنَّ معظم المراقبين يعتقدون أنَّ أحد أهمّ أهداف هذا التجمع، هو العمل على قيام تعددية قطبية^(٣٨)، تعبيراً عن رفض أحادية الولايات المتحدة في قيادة العالم، إذ صرّح رئيس هيئة الأركان العامة للقوات المسلحة الروسية الجنرال يوري بالوفسكي، في كلمة ألقاها في اجتماع رؤساء أركان جيوش الدول الأعضاء في المنظمة في ٢٠٠٧/٨/٩، قائلاً: "لا يمكن أن تنجح منظمة شنغهاي للتعاون في المجال الاقتصادي، إلا عندما يتمّ تدعيم الأمن الإقليمي، فالقيادة العسكرية الروسية ترى أنَّ تطورات الوضع السياسي الدولي تستوجب إقامة تعاون عسكري أيضاً".

31 Marcel de Haas, "Partners and competitions /NATO and the (Far) East", Analyses, April 2013, pp.1- 6, at: <http://bit.ly/1wpd0lT>

٣٢ نفي نائب وزير الدفاع الروسي سيرجي رازوف مزاعم أنَّ التعاون العسكري بين أعضاء SCO للتعاون هو أولوية قصوى فالولايات لدينا هي اقتصادية، أمنية ولم تشكل كبديل أو أداة معارضة لأي طرف.

٣٣ طالب البيان الختامي للمنظمة في اجتماع القمة التاسعة بمدينة في مدينة إيكاترينبرغ في منطقة الأورال (روسيا) خلال الفترة ما بين ١٥ و١٦ يونيو/ حزيران ٢٠٠٩: بالتوجه إلى "النظام المتعدد الأقطاب في العالم" باعتباره أمراً لا مفر منه في ظل وجود دلالات متنامية لقدرة المنظمات الإقليمية على حل المشاكل والأزمات الكونية.

SCO ودورها في ترسيخ تعددية الأقطاب في العلاقات الدولية

وضعت منظمة حلف شمال الأطلسي العديد من المبادرات الناجحة التي ساعدت في تعزيز الاستقرار العالمي وتعزيز الثقة المتبادلة بين مختلف الجهات الفاعلة الجيوسياسية، وأول إجراء قامت به بعد تفكك حلف وارسو، كان مجلس شمال الأطلسي للتعاون الذي يضم أميركا الشمالية الكاريبي قد تأسس عام ١٩٩١، وفي عام ١٩٩٧ أصبح مجلس الشراكة الأوروبية الأطلسية وتحوّل إلى مبادرة الشراكة من أجل السلام التي أطلقت ١٩٩٤، وفي السنة نفسها أطلقت مبادرة أخرى ضمت سبع دول من الضفة الجنوبية للمتوسط هي المغرب وموريتانيا، وتونس، والجزائر، ومصر، والأردن، وإسرائيل؛ وفي عام ٢٠٠٢ تأسست لجنة الناتو وأكرانيا؛ وفي عام ٢٠٠٤ مبادرة إسطنبول للتعاون (ICI) بين التحالف وبعض دول الخليج الفارسي (الإمارات العربية، وعمان، وقطر، والبحرين)، وكذا المبادرة الجورجية التي ولدت في صيف ٢٠٠٨ في أعقاب الحرب في القوقاز^(٣٧).

وفي حديثه أمام طلاب جامعة كانساس في الولايات المتحدة الأمريكية في الأول من الشهر الحالي، قال مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية (CIA) مايكل هايدن، أنّ معادلات مرحلة ما بعد الحرب الباردة، والتي شهدت سيطرة أمريكية أحادية على العالم في كافة المجالات، قد انتهت مع صعود تأثير أطراف أخرى سواءً أكانت حكومات أم أطرافاً مستقلة، أو منظمات إقليمية وازدياد تأثيرها في مسرح الأحداث العالمية. ويقصد بذلك روسيا والصين^(٣٨).

وتضمّ منظمة شنغهاي للتعاون في عضويتها دولاً (أورو- آسيوية) كما ستشهد في المستقبل القريب انضمام اثنين من أكبر البلدان الآسيوية، فقد أيّدت موسكو والصين طلب الهند وباكستان الانضمام إلى هذه المنظمة، وكان الحديث يدور في السابق حول إمكان انضمام إيران أيضاً، وبهذا التكوين الجيوبوليتيكي تمتلك المنظمة إمكاناً كبيراً لتكون واحدة من المنظمات الأممية، لتتحوّل بالتدريج إلى لاعب بارز على الساحة الدولية^(٣٩).

37 Giovanni maizza, "Nato- Sco: The Missing Dialogue", Italian committee Atlantic treaty association, 15/4/2014, at: <http://www.comitatoatlantico.it/en/studi/2333/>

38 "هل تنجح واشنطن في خلق منظمة بديلة في آسيا الوسطى (٢+٥)؟"، موقع سرايا، ٢٠٠٨/٥/٣، شوهد في: ٢٠١٤/٩/١٢، على الرابط: <http://www.sarayanews.com/index.php?page=article&tid=1538>

39 بيتر اوكونوف، "منظمة شنغهاي للتعاون تعزز ائتلاف روسيا مع الصين والهند"، صحيفة فرغلياد، ٢٠١٣/١٠/١، شوهد في: ٢٠١٤/٤/٥، على الرابط: <http://arab.rbth.com/world/2013/10/11/24953.html>

الجدول (٢)
منظمة شنغهاي: مناورات "مهمة السلام"

السنة	البلد المنظم	عدد الجنود المشاركين
مهمة السلام ٢٠٠٥	روسيا، الصين	١٠٠٠٠
مهمة السلام ٢٠٠٦	/	/
مهمة السلام ٢٠٠٧	روسيا، الصين	٦٠٠٠
مهمة السلام ٢٠٠٨	/	/
مهمة السلام ٢٠٠٩	روسيا	١٣٠٠٠
مهمة السلام ٢٠١٠	كازاخستان	٣٠٠٠
مهمة السلام ٢٠١١	روسيا	/
مهمة السلام ٢٠١٢	طاجيكستان	٢٠٠٠
مهمة السلام ٢٠١٣	روسيا	١٥٠٠
مهمة السلام ٢٠١٤	منغوليا الداخلية	أكثر من ٧٠٠٠

المصدر: من إعداد الباحث

من جانب آخر تعرقل المنظمة المحاولات الأمريكية الساعية لتقليص الدور الروسي في المنطقة، وحصارها وإضعافها بصورة تمنعها من استعادة دورها بصفاتها قوة عظمى في المستقبل المنظور على الأقل، وعزلها عن مجالها الحيوي في آسيا الوسطى والقوقاز^(٣٦). في حين تريد الصين تعزيز وجودها في المنطقة، وهو ما تشجعه دول آسيا الوسطى، بهدف الموازنة بين هذا الدور ودور كل من روسيا والولايات المتحدة اللاعبين العملاقين الآخرين. وتقف "شنغهاي" عقبة أمام محاولات تطويق إيران (التي تحظى بصفة مراقب في المنظمة)، وفرض عزلة دولية عليها، ومنعها من إقامة علاقات مع العملاقين الإقليميين الصين وروسيا ودول آسيا الوسطى. وعليه، فإنّ الموقف من منظمة شنغهاي هو الموقف من فكرة إيجاد بديل للنظام العالمي الحالي، وفي ضوء الإستراتيجيات المتباعدة بين "منظمة شنغهاي" وواشنطن، هل يمكن لمنظمة شنغهاي للتعاون أن تشكّل قطباً موازياً للغرب (حلف الناتو والولايات المتحدة الأمريكية)؟

36 سمير حسين، "منظمة شنغهاي للتعاون لتصفية الحركات الإسلامية بآسيا الوسطى"، آسيا الوسطى، ٢٠٠٩/١١/٥، شوهد في: ٢٠١٤/٤/١٠، على الرابط: <http://bit.ly/1IpPxEl>

• القمة الثالثة عشرة الأخيرة لمنظمة شنغهاي للتعاون التي عقدت في العاصمة القرغيزية بشكيك يومي ١٣ و١٤/٩/٢٠١٣، واللقاءات الثنائية ولا سيما بين الرئيس الإيراني الجديد حسن روحاني والرئيسين الصيني تشي جين بينج والروسي فلاديمير بوتين، والثلاثية المشتركة بين الرؤساء روحاني وبينج وبوتين، إضافة إلى ما صدر عنها بعد هذه اللقاءات؛ إذ شكّلت هذه اللقاءات كما لاحظ مراقبون غربيون نواة عملية لسياسات جديدة، وتحالفات قوية، تتجه إلى بناء نظام دولي جديد^(٤٣).

• عبّر عنه مراسل "بي. بي. سي" الذي كان يغطّي قمة ببشكيك حين قال: "ثمة مؤشرات عدة برزت من قمة هذا العام بأنّ معاهدة شنغهاي بدأت تأخذ دورها بشكل جدي للغاية، والرسالة التي وجّهتها هذه المرة هي أنّ العالم أكبر من الغرب"^(٤٤).

من المهم التأكيد على أنّ هذا التنظيم يتكوّن من عضوين دائمين في مجلس الأمن الدولي، وفي الوقت نفسه اثنين من البلدان الأعضاء GA مهمة (روسيا والصين) وهما القوتان النوويتان بين الدول الأعضاء (مرة أخرى روسيا والصين)، وغيرها ثلاث قوى نووية بين الدول المراقبة (الهند، وباكستان، وإيران)، وهما من بين الدول الأكثر سكاناً في العالم (الصين و الهند)، واثنين من الاقتصادات الرئيسة توسيع (الهند والصين) مرة أخرى، وثلاثة من أصل أربعة أعضاء من دول البريكس (البرازيل، وروسيا، والهند والصين، وجنوب أفريقيا)، والمنتجين والمستهلكين الرئيسيين للطاقة (الصين، والهند)، وعلى مساحة تقدّر بـ ٣٨ مليون كيلومتر مربع وأكثر من ٣ مليارات نسمة (٦٠٪) من سكان العالم. فمن الواضح أنّ واقعاً مثل منظمة شنغهاي للتعاون لا يمكن ولا يجب الاستهانة بها أو ما هو أسوأ، تجاهلها^(٤٥).

ومع تحوّل الصين إلى أكبر مركز اقتصادي؛ إذ ستصبح كما تقول السيناريوهات الاقتصاد الأول في العالم مع مطلع ٢٠٢٠، وتحوّلها بمساعدة روسيا إما بالتحالف العسكري معها وإما بتزويدها بالأسلحة الحديثة إلى قوة عسكرية ضاربة، فإن موازين القوى يمكن أن تنقلب في القارة الأوراسية من ناحية، وستعمل من ناحية أخرى على تفرغ النصر الذي حققته أميركا في الحرب الباردة من محتواه ويحوّلها ثانية إلى دولة تدافع عن نفسها، مما سيعصف بسياسة القطب الواحد

ويرى البعض أنّ المنظمة تسعى لتشكّل منافساً لحلف الناتو بحيث يقف في وجه التمدد الأطلسي الأوروبي (على الرغم من نفي مؤسسيها لذلك)، أو إلى تشكيل حلف جديد على أنقاض حلف وارسو الذي سقط مع انهيار الاتحاد السوفياتي مطلع التسعينيات من القرن الماضي^(٤٦).

فهل يمكن لمنظمة شنغهاي للتعاون التي تضمّ الآن ربع سكان العالم، وقد تضمّ نصف البشرية في حال انضمام الهند وباكستان ومنغوليا إليها، أن تشكّل حجر الأساس في نظام عالمي تعددي جديد؟ وما دورها في معادلة التوازن الدولي؟ وهل يمكن للتحالفات الناشئة أن تقف في وجه القوى الراسخة أو أنّه دفاع «قلب العالم» عن نفسه؟ كما يصفه علماء الجيوبوليتيك، أمام هجوم الدولة البحرية الأقوى الولايات المتحدة، كما يقول زبغنيو بريجنسكي في كتابه **لعبة الشطرنج الكبرى**، وهل تستطيع منظمة شنغهاي أن تتحمّل مسؤولياتها كاملة في المنطقة، بعد رحيل حلف شمال الأطلسي والولايات المتحدة من أفغانستان في ٢٠١٤؟

يمكننا في هذا السياق أن نعدّد أربعة آراء تعتقد ذلك:

• الأول هو أرييل كوهن، الباحث البارز في دائرة الدراسات الروسية والأوراسية في "هاريتيج فاوندیشن" الذي يقول إنّ "عودة الصين إلى حديقته الخلفية في آسيا الوسطى بعد غياب دام ألف عام، وعودة روسيا إلى ممتلكاتها القديمة في الاتحاد السوفياتي السابق، يجب أن تدقّ أجراس الإنذار في واشنطن، ليس فقط حيال وجودها في هذه المنطقة الغنية بالطاقة، بل أيضاً إزاء مستقبل زعامتها العالمية"^(٤٧).

• صحيفة "الغارديان" البريطانية التي أعادت إلى الأذهان أنّ منظمة شنغهاي حدّدت في وقت مبكر من عام ١٩٩٩ هدفها بإقامة نظام عالمي تعددي جديد، حين شدّد كلّ من الرئيسين (آنذاك)، الصيني زيانغ زمين والروسي بوريس يلتسين على "إيمانهم بضرورة إقامة نظام عالمي تعددي، يحلّ مكان النظام الحالي الأميركي"^(٤٨).

٤٠ أحمد علوّ، "منظمة شنغهاي... بين تحالف المصالح وصراع الحضارات، حلف جديد أم دفاع قلب العالم عن نفسه؟" مجلة الجيش، العدد ٢٩٣، تشرين الثاني ٢٠٠٩، شوهد في: ٢٠١٤/٤/٦، على الرابط:

<http://www.lebarmy.gov.lb/ar/news/?23653#.VIgf3HvdmQm>

٤١ عبد الله جاد الله، "الصين والولايات المتحدة الأمريكية: صراع العملاقة وبوادر الحرب الباردة الثانية"، ٢٠١١/٣/٢٥، على الرابط:

<http://politicalplatform.wordpress.com/2011/03/25/>

٤٣ كاظم الموسوي، منظمة شنغهاي للتعاون ونظام دولي جديد، مجلة الموقف، ٢٠١٣/٩/١٧، شوهد في: ٢٠١٤/٤/٥، على الرابط: <http://almawqef.com/spip.php?article7690>

٤٤ جاد الله.

٤٥ Maizza.

فهناك عقبات كثيرة تحوّل دون بروز شنغهاي قطبًا دوليًا جديدًا، أهمّها، التنافس على النفوذ ومشكل تسلسل الأولويات بين موسكو وبكين، إذ تميل موسكو إلى التركيز على المسائل الأمنية، فيما تنحاز بكين للتركيز على التعاون الاقتصادي، بعبارة أخرى روسيا تريد أن تكون منظمة شنغهاي وسيلة لتدعيم الوجود الإستراتيجي الروسي في آسيا الوسطى، في حين تريد الصين أن تكون المنظمة أداة لمد نفوذها الاقتصادي^(٤٩). وما يبرر ذلك أن الصين هي المستورد الأول للطاقة وعليه فمن الضروري أن تركز على النمو الاقتصادي، في حين أن روسيا هي مصدر للطاقة وعليه يكون التركيز على بناء القوة العسكرية، وبالنتيجة فإن عسكرة قضية اقتصادية مثل أمن الطاقة يدفع للتقاء المصالح بين الصين وروسيا، وقد أكدت على ذلك من خلال الإستراتيجية الروسية في ١٢ أيار/ مايو ٢٠٠٩، والتي أكدت على موضوع الأمن من خلال التنمية الاقتصادية، والقوة العسكرية اللازمة لحماية أمن إمدادات الطاقة^(٥٠).

بالإضافة إلى ذلك فإن منظمة شنغهاي لا تعدّ نفسها حلفًا منافسًا للولايات المتحدة الأميركية؛ فلكل من دولها علاقات واسعة معها، ولا تعزّم التضحية بها^(٥١). ثم هناك مواقف متباينة بين روسيا والصين في جنوب آسيا، ففي حين تدعم الثانية باكستان بقوة، تجد الأولى مصالحها مع الهند، وهذه نقطة قد لا يحلها انضمام الهند وباكستان معًا إلى معاهدة شنغهاي، بل قد يعقدها إذا لم تحل أزمة كشمير.

وعليه يمكن القول إنّه من السابق لأوانه القول ببروز منظمة شنغهاي قطبًا دوليًا جديدًا، لكنّ تشكّل المنظمة واستمرارها إضافة إلى دول البريكس (BRICS) قوة دولية يمكن أن تكون اللبنة الأولى والمؤثرة لانطلاق نظام عالمي تعددي في المستقبل.

في العلاقات الدولية كما سبق أن عصفت الحرب الباردة بالمعسكر الاشتراكي والاتحاد السوفياتي.

كما أنّ القدرات الاقتصادية والعسكرية لدول المنتدى توازي القدرات العسكرية الأميركية. أمّا في حال توحيد القوتين العسكريتين لروسيا والصين فإنهما ستفوّقان على الولايات المتحدة الأميركية في عدة جوانب أهمها مضادات الصواريخ التي تملكها روسيا وحدها دون غيرها؛ ما سيجعل مشروع الدرع الأميركي المضاد للصواريخ حجر الأساس في التفوق الأميركي عديم الجدوى، بالإضافة إلى ذلك فإنّ دخول الهند وباكستان إليها قد يشكّل رجحانًا مهمًا على الصعيد الجيوبوليتيكي والجيوسراتيجي العالمي^(٤٦)، كذلك انضمام إيران ببرنامجه النووي، وربما كوريا الشمالية مستقبلاً، فنكون في هذه الحالة أمام أربع قوى نووية (روسيا، والصين، والهند، وباكستان) وهكذا تميل موازين القوى في هذه الحالة لصالح بكين وموسكو (منظمة شنغهاي) ولغير صالح واشنطن، الأمر الذي فسره البعض بأنّ المنظمة تعمل لتكون وريثة لحف وارسو.

ولكن في حقيقة الأمر، يمكن القول إنّ منظمة شنغهاي وتحالفاتها الناشئة بعيدة عن أن تمثل بديلًا^(٤٧)، أو أن تشكّل قطبًا موازيًا أمام القوى الراسخة لحلف الناتو والولايات المتحدة الأميركية والغرب بصفة عامة، صحيح أنّها نجحت في تحقيق الهدف الأول والأهم الذي كانت تسعى إليه كل من الصين وروسيا وهو منع انفلات الأوضاع والأزمات بالقرب منهما لكي لا تحصل الولايات المتحدة على مبرر أو محفز للتدخل السياسي أو العسكري في (الفناء الخلفي) أو المنطقة القريبة من حدودهما، وكذلك المطالبة بالخروج المبكر للقوات الأميركية من منطقة آسيا الوسطى عمومًا^(٤٨).

٤٩ فيودور لوكيانوف، "منظمة شنغهاي نموذج أولي للعالم الجديد"، أنباء موسكو، ٢٠١٢/٦/٨، شوهده في ٢٠١٤/٦/٤، على الرابط: <http://anbamoscw.com/opinions/20120608/375508665.html>

50 Christina.Y. Lin, "NATO and the Shanghai Cooperation Organization: New Energy Geopolitics for the Transatlantic Alliance", AICGS Transatlantic Perspectives, August 2009, at: <http://bit.ly/1qURin8>

51 Tugsbilguun, p. 95.

٤٦ "منظمة شنغهاي للتعاون تدخل عقدها الثاني"، أنباء موسكو، ٢٠١٢/٦/٦، شوهده في: ٢٠١٤/٤/٦، على الرابط: <http://www.anbamoscw.com/world/20120606/375480300.html>

47 T.Tugsbilguun, Does the Shanghai represent an example of military?, the Mongolian journal Affairs, no. 15-16, Mongolia (2008-2009), p. 94.